التربية والتعليم في الإسلام

دراسة في المصطلح وإشكالياته المفهومية

الدكتور **محمد نقيب العطاس***

تعريب **محمد حسن زراقط**

مدخل مفهومي لبيان المقصود:

سوف أحاول في هذه المقالة بيان حقيقة التربية والتعليم في الإسلام، وذلك لقناعتي التامة بأن حقيقة النظام الإسلامي في مجال التربية والتعليم ما زالت مجهولة في أرجاء العالم الإسلامي. تعريف التربية والتعليم في الإسلام سوف يسهِّل تنظيم برامج العمل ويحقق انسجامها مع الحاجات التي تفرضها حقيقة هذا المفهوم.

وهذا القالب الذي أتصوره لنظام التربية والتعليم الإسلامي جديد بالمعنى الفلسفي والعياني، وهذه الجدة تفرض عليَّ تمهيد بعض المقدمات الضرورية لفهم هذا الطرح. وسوف أعرض، مضطراً، لبعض الأزمات التي نعاني منها في مجال التعليم والتربية، وليست هذه الأزمات خاصة بنا، نحن المسلمين، وبتاريخنا التفكيري بل تتعلق بشكل أو بآخر بتاريخ الثقافة الغربية وحضارتها. ومن المفيد بيان درجة انحرافنا عن السنن الإسلامية الأصلية في هذا المجال؛ حيث إن ذلك يبين جذور هذه الأزمات المشار إليها.

الطبيعة العلمية للغة العربية:

عندما نتحدث عن المنهجية methodology والاستخدام

* مؤسس ومدير المركز العالي للفكر والحضارة الإسلامية - ماليزيا.

الصحيح للرموز اللسانية linguistic symbols مرادنا الأساس هو فهم اللغة العربية التي هي لغة الإسلام والعلوم الإسلامية، واللغة التي يصور بواسطتها فهم الإسلام للواقع والوجود. وأقصد من وصفي للغة العربية بالعلمية ناحية الحسم والتقرير النهائي definitive التي تشخص العلم بواسطتها، وذلك أن العلم science هو تعريف الحقيقة reality. وقد كشف الله سبحانه عن هذا البعد في اللغة العربية عندما قال: ﴿ **قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾[1] والإشارة إلى اللغة التي نزل بها القرآن تكشف عن حقيقةٍ مفادها، أن القرآن الذي هو مصدر الوعي والمعرفة والعلم الصحيح ينبغي أن يكون قالبه اللغوي كذلك صحيحاً «غير ذي عوج».

وإن أكثر اللغات يقبل التغير الدلالي Semantic تبعاً لعوامل تاريخية واجتماعية، بل تبعاً لرؤى شخصية خاصة في بعض الأحيان. وهذا النوع من اللغات لا ضمان فيه للحفاظ على الحقيقة المطلقة والمحددة. واللغة العربية ليست من هذه اللغات ويدل على هذه الحقيقة مؤشرات عدة منها:

١- إن البنية الألسنية للعربية قائمة على جذور لغوية محددة هي المصدر.

٢- بناؤها المعنائي تابع لنظام واضح المعالم يعين المجالات الاستخدامية للمفاهيم والكلمات التي ثبتت بالبند السابق المشار إليه أعلاه.

٣- لقد دونت كلماتها ومفرداتها وضُبِطت معاني هذه الكلمات بشكل علمي دقيق وكذلك دونت بالطريقة عينها علوم اللغة الأخرى كالنحو والعروض.

وهذه الخصوصية العلمية وعاها مدونو المعاجم اللغوية بوضوح، وكانوا أول من دوَّن هذا النوع من الكتب في تاريخ البشرية. ويمتد تاريخ الاهتمام بتدوين المعاجم إلى أكثر من ألف سنة؛ أي من عصر **ابن عباس** إلى ما يقرب من عصرنا هذا، وقد بلغت بعض معاجم العربية عشرين مجلداً، بل إن بعضهم أراد إيصالها إلى الستين، وهم من كل ذلك يهدفون إلى المحافظة على صفاء اللغة العربية ووضوح معاني مفرداتها. ويعد **ابن عباس** أول من اختط منهج تحديد المعنى الصحيح في مسيرة تفسيره للقرآن، وبعده إلى حوالي القرن الثاني الهجري شرع علماء العربية بتقسيم فترات الأدب والشعر العربي إلى: جاهلي، ومخضرم، وإسلامي، ومولَّد؛ بهدف تشخيص المرجعية المعتبرة لبيان خصائص اللغة العربية. وبعد ذلك صار القرآن الكريم والحديث الشريف من أعلى وأوثق المستندات للغة العربية.

وأهم المعاجم اللغوية التي صُنِّفت من القرن الثاني الهجري إلى الثاني عشر الهجري هي: كتاب العين **للخليل بن أحمد الفراهيدي**(ت ١٦٠هـ)، الجمهرة **لابن دريد** (ت ١٢٣)، التهذيب **للأزهري** (ت: ٣٧٠هـ)، المحيط **لابن عباد** (٣٨٥هـ)، المجمل **لابن فارس**(ت ٣٩٠هـ)، الصحاح **للجوهري** (ت٣٩٨هـ)، الجامع **للقزاز**(٤١٢هـ)، المحكم **لابن سيده**(ت ٤٥٨هـ)، الأساس **للزمخشري**(ت ٥٣٨هـ)، والمُغرب **للمطرزي**(ت ٦١٠هـ)، العباب **للصغاني**(ت ٦٨٠هـ)، لسان العرب **لابن منظور**(ت ٧١١هـ)، تهذيب التهذيب **للتنوخي**(ت ٧٢٣هـ)، المصباح **للفيومي** (اكتمل تأليفه ٧٣٤هـ)، المغني **لابن هشام**(ت ٧٦١هـ)، القاموس **للفيروزآبادي** (ت ٨١٦هـ) وتاج العروس **للزبيدي**(ت ١٢٠٥هـ).

وإذا تجاوزنا هذه المعاجم اللغوية العامة التي تكشف عن دقة فائقة بذلها العلماء المسلمون في تدوينها، فإنه يوجد إلى جانبها معاجم من نوع آخر وتكشف عن دقة وجهد خاص، ألا وهي المعاجم العلمية المدوَّنة لشرح المصطلحات في شتى أنواع العلوم، ومن هذه المعاجم: كتاب «التعريفات» للجرجاني(ت: ٨١٦هـ)، حيث جرت طريقته على بيان المصطلح ودلالته وطرق استخدامه الصحيح والدقيق، وكل ذلك مشفوع بالمستندات والأدلة التي تثبت دقته العلمية العالية.

وإنما أوردنا هذه التفاصيل بغرض الإشارة إلى الطبيعة العلمية للغة العربية، ما يضمن التوصل إلى معرفة معاني الألفاظ ودلالتها بشكل دقيق. وليس بعيداً عن هذه الخصوصية كان العلم الأول بين المسلمين هو علم التفسير، هذا العلم الذي يملك شخصية مستقلة؛ بحيث لا يمكن الحكم بمطابقته لقوانين التفسير الموروثة عن اليونان، ولا التفسير المسيحي للكتاب المقدس. بل ولا أي تفسير آخر لأي نص ديني. في علم التفسير الإسلامي لا مجال للحدس والبحث عن القرائن، ولا مجال كذلك للقراءات الشخصية المبنية على الفكر النسبي التاريخي. بل العمدة في تفسير آيات القرآن هو الكتاب الكريم نفسه والحديث الشريف. وعلم مجالات معرفة المعنى الحاكم على البنى المفهومية لمفردات القرآن يبتني على المرجعيتين السابقتين أي الكتاب والسنة. إذاً، يبتني التفسير على علم متثبت منه كما ورد في اللغة العربية، وتأسس استخدامه في القرآن والحديث الشريف.

فعندما يقول الله سبحانه ﴿يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾[٢] نعمد إلى نموذج خاص نفسر الآية بواسطته فنقول، مثلاً: إن الله يخرج الفرخ الحي من البيضة الميتة، فهذا تفسير. ولكن عندما نقول: إن الله يخرج المؤمن من الكافر، والعالم من الجاهل فهذا تأويل. ومن هذا المثال

يتضح أن التأويل ليس إلا شكلاً متطوراً من التفسير؛ وذلك لأن التفسير يكشف عن معنى اللفظ المبهم والتأويل يكشف عن المعنى الأعمق للفظ. وفي مثالنا الذي سقناه أعلاه يعتمد تفسير وكذلك تأويل الكلمتين: «الحي والميت»، على السياقات التي تحدد البنى المفهومية للمفردات القرآنية، وعلى ضوء موارد استخدامها في القرآن والحديث.

وكمثال لتوضيح الفكرة، فإن التأويل كشف عن أن المراد من الحي المؤمن، ومن الميت الكافر، وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[٣]. وفي مورد آخر يقول: ﴿وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ﴾[٤]. كلمة الرجع في هذه الآية تدل على الشيء الذي يأتي ثم يأتي مراراً ويجلب معه الحسن والقبيح، فالله ينزل الغيث مراراً ليبعث النبات الحي من الأرض الميتة، وبهذه المقاربة تتضح القرابة المفهومية بين المفهومين القرآنيين: الرجع والدين؛ وذلك أن أحد المعاني الأساسية لكلمة «دين» هو المطر الذي يعود مراراً إلى موضع خاص؛ أي أن الدين الحق يشبه المطر الذي يحيي الله به الأرض بعد موتها في أنه يحيي الإنسان الميت. ومن هنا، كان التعبير عن المؤمن بالحي وعن الكافر بالميت[٥].

أرضية معرفة المعنى في نسيج الإسلام ومحتواه:

إن ما سوف يأتي الحديث عنه في الفقرات اللاحقة هو مدخل لموضوعنا الأصلي وهو مفاهيم: العلم والتربية والتعليم. وسوف يتضح أن العلاقة بين التفسير والتأويل سيكون لها تأثير على نظرتنا إلى هذه المفاهيم الثلاثة المتقدمة. وذلك أنه كما أن القرآن كتاب مفهوم فكذلك الطبيعة كتاب آخر مفتوح كذلك، وكل منهما يريد أن تُشرح كلماته ومفرداته بهاتين الطريقتين المعتبرتين: التفسير والتأويل. وسوف نرجع إلى هذه المسألة ثانية في مورد آخر. وعلى أي حال، فإن الكلمة تتخذ استخدامها الصحيح ضمن نسيج مجالها العلمي الخاص؛ أي الأرضية المعنائية الحاكمة على استخدامها والتي لها تأثير ونفوذ على المجالات المعنائية الأخرى. ويورد لنا الجاحظ في كتابه البخلاء نموذجاً واضحاً لهذا الأمر عندما يضع الحدود الفاصلة لتعريف البخل والبخيل؛ حيث يرى أن هذه الكلمة تطلق على الكائن الحي، والإنسان تحديداً، ومن بين بني البشر تطلق على العاقل البالغ المقتدر مالياً. فإذا استخدمنا كلمة بخيل لوصف امرأة أو رجل معدمين أو طفل صغير نكون قد أخلَّينا بالنظام المفهومي لكلمة بخيل.

وهكذا ينبغي الالتفات إلى المجالات المعنائية للكلمات الإسلامية وأقصد «بالكلمات الإسلامية» تلك المفردات التي أضفى عليها القرآن والحديث الشريف مسحة معنائية جديدة لم تكن تحملها في السابق رغم وحدة الحروف المشكلة لها، وهذه الكلمات تمثل المفاهيم الأصلية في بيان عناصر الرؤية الكونية الإسلامية. وأمثلة ذلك كثيرة في اللغة، ومن ذلك كلمة «كريم»؛ حيث كانت هذه الكلمة في الجاهلية تدل على المعنى المقابل لكلمة «بخيل»، ولكن القرآن غيّر المجال المعنائي لهذه الكلمة واستخدمها في معنى قريب من التقوى فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٦].

وقد سرت هذه الأسلمة في لغات الشعوب الإسلامية جميعاً حتى صار المعجم الإسلامي موجوداً في كل اللغات على تنوعها واختلافها وبرزت إلى الوجود شبكة مفاهيمية واحدة تجمع بينها[٧]. وعلى ضوء ذلك تظهر بوضوح أهمية البحث عن استخدامات المصطلحات والمفاهيم الأصلية والمفتاحية الإسلامية، في الدراسات الفكرية والمنطقية. فعندما نجد أن كلمة علم تحمل دلالات متعددة تختلف باختلاف لغات الشعوب الإسلامية، لا ينبغي أن نعلل ذلك بما يعُبَّر عنه بشكل مبهم بـ «التغيير الاجتماعي»، بل لذلك علة أخرى هي فقدان الأدب -كما سيأتي توضيحه- ومرتبط كذلك بطغيان المفاهيم الأجنبية التي أدت إلى إحداث التبدل في الشبكات المفاهيمية وعلاقات مجالاتها.

وهذه الظاهرة سرت إلى كثير من المصطلحات والمفاهيم المفتاحية الإسلامية حتى حولتها إلى كلمات فارغة من الدلالة بعد نقلها إلى ميادين أجنبية عنها. وما ذلك إلا نتيجة الخلل والاضطراب والرجوع إلى الرؤى الكونية غير الإسلامية. وهذا ما أسميه «لا أسلمة» اللغة. وهذا البعد عن المفاهيم الإسلامية الأصلية قد ساعد على فقدان القوى العاطفية والثقافية؛ وذلك لما بين اللغة والفكر من رباط وثيق، فإن أي خلل يطرأ على فهم استخدام المفردات والرموز اللغوية سوف ينعكس خللاً في فهم الإسلام نفسه، وفهم الرؤية الكونية التي يقدمها. ومن الأمثلة على ذلك الآثار التي أحدثتها المصطلحات الفلسفية اليونانية بعد تسربها إلى الفكر الإسلامي؛ حيث يرى **الغزالي** في كتابه «تهافت الفلاسفة» أن ذلك ناشئ من عدم انسجام هذه المصطلحات مع مضمون الإسلام ونسيجه. وما يعانيه المسلمون اليوم من أزمات أعمق بكثير، وهذه الأزمات لا تعصف بالمجال الفلسفي فحسب، وإنما تلقي بظلها على أوجه الحياة كلها تقريباً. ففي هذا العصر نعاني من قلق واضطراب في

تحديد مفهوم الدين نفسه. وقد هدم تسرب المفاهيم الأجنبية الدخيلة أنظمة فكرية عدة من العلوم: الطبيعية إلى الإنسانية، والتطبيقية، والاجتماعية، والفن.

مفهوم التربية والتعليم في الإسلام:

أعتقد أن مصطلح «التربية» لا يقدم المفهوم الإسلامي الصحيح عن ما يراد من «التربية والتعليم»، وحيث إن هذا المصطلح على درجة عالية من الأهمية أرى ضرورة تحليله لتقديم تصور صحيح عنه. إن معنى «التربية والتعليم» وما يتوافق معهما ويشملهما، له تأثيره الكبير على بناء نظام التعليم ومسيرته. فإذا سئلت: ما التربية والتعليم؟ فأجبت: التربية والتعليم هما عملية ترسيخ شيء ما في أفراد الإنسان. وبتحليل هذا التعريف نجد أن «عملية ترسيخ» تشير إلى المنهج والنظام الذي به يتم ترسيخ شيء ما، بواسطته ينتقل بالتدريج ما يسمى بالتربية والتعليم، و«شيء ما» تشير إلى المحتوى والمضمون الذي يراد ترسيخه، و«أفراد الإنسان» تشير إلى المتلقي. إذاً، في هذا التعريف إشارة إلى عناصر ثلاث تشكل بأجمعها التربية والتعليم، وهي: العملية، والمحتوى، والمتلقي.

ومع ذلك كله، فلا يمكن عَدُّ هذا تعريفاً؛ لأن هذه العناصر نفسها تحتاج إلى توضيح. أضف إلى ذلك أن ترتيب مفردات هذا التعريف يوحي بأهمية «عملية» التعليم، فإذا بدلنا ترتيب المفردات بشكل آخر وقلنا: «**التربية والتعليم هما: الشيء الذي يترسخ في الإنسان شيئاً فشيئاً**».

فإننا نجد العناصر الثلاثة المشار إليها أعلاه موجودة بعينها، ولكن مع تقديم المحتوى على العملية التي تم بها تقديم هذا المحتوى. ودعونا نوجه اهتمامنا إلى هذا التعبير الأخير في محاولة لتحليله ودراسته.

ولنبدأ بالإنسان، وذلك أننا نعرِّف الإنسان بأنه «حيوان ناطق»، وبما أن وصف الناطق قد أُدخِلَ في تعريف الإنسان، فنحتاج إلى معرفة ماذا يعني «كون شيء ما ناطقاً» -ration ality نسبة إلى rational ولنفترض مبدئياً أنها تشير إلى العقل "reason". ولكن في تاريخ الفكر الغربي بحث طويل الذيل في مفهوم ratio (العقل، النطق) ولَّد –على الأقل من وجهة نظرنا نحن المسلمين– إشكاليات كبيرة، وذلك أن هذا المصطلح انفصل تدريجياً عن «الفكر» intellectus عبر صيرورة الأفكار المنقولة عن اليونان والرومان لا دينية وتسربها إلى الفكر الغربي.

ولم يكن في ذهن المفكرين المسلمين أي تفاوت بين مفهوم العقل ratio ومفهوم الفكر intellectus، بل كان لهذين المصطلحين معنىً واحداً في أذهانهم. وقد عمدوا إلى تعريف الإنسان بقولهم: «**حيوان ناطق**»[٨]. انطلاقاً من هذا التصور، وعلى أساس أن كلمة ناطق تحمل في طياتها مدلول «منطقي»؛ أي ما يشمل القدرة على الحكم والتمييز والتوضيح.

وقد اشتقت كلمة «ناطق» وكلمة «نطق» من جذر يدل بالدرجة الأولى على الكلام والقول، وروعي فيهما دلالتهما على قدرة الإنسان على إظهار الكلام في قالب ذي معنى. وليس هذا الأمر في حقيقته سوى إظهار خارجي مرئي ومسموع لحقيقة واقعية داخلية لا يمكن رؤيتها بنفسها وهي ما نسميه العقل. وكلمة عقل تدل بالأصل على «الربط» و«المنع» ووجه التسمية هي وظيفة هذه القوة وقدرتها على حفظ موضوعات العلم.

وبين العقل بهذا المعنى الأخير الاصطلاحي وبين القلب ترادف[٩] وطبيعة العقل الأصلية هي أنه جوهر معنوي تستطيع النفس الناطقة من خلاله التمييز بين الحق والباطل[١٠]. ويتبين من خلال هذا العرض وبالاستناد إلى مراجع عدة غير ما أشرنا إليه أن الأساس في تعريف الإنسان هو ما يشار إليه بكلمة «أنا». وعليه فعندما يجري الحديث عن التربية والتعليم ينبغي أن يكون الأساس والمحور هو هذه الحقيقة الباطنة لا المظهر والهيكل الحيواني والجسدي فحسب.[١١]

بالعودة إلى تعريف الإنسان؛ حيث أخذ فيه القدرة على استخدام كلمات ذات معنى، فإن المراد من «المعنى» في هذا النص هو معرفة موضع كل شيء في نظام ما. وهذه المعرفة تتجلى عندما يبدو لدى الإنسان قدرة على معرفة العلاقات بين أجزاء نظام واحد. والمعنى هو التصور الذهني الذي تدل عليه الكلمة عندما تستخدم فيه. وعندما تظهر الكلمات بصورة معتقدٍ أو تصور تسمى «مفهوماً»، وذلك كما يسمى ما تقع في جواب سؤال «ما هو؟» ماهية. والفرق بين الماهية والحقيقة هو أننا في الأولى نشير إلى التحقق العيني الخارجي لشيء ما..[١٢].

والعنصر المهم الثاني الذي لا يقبل الانفصال في التربية والتعليم هو «المحتوى» أو المضمون وهو ما عبر عنه في التعريف السابق بـ«شيء». ورغم أننا جميعاً نعلم أن المراد من هذه الكلمة هو العلم ولكن لابد من مزيد إيضاح للمقصود من هذه الكلمة. ومع أن تعلم مهارة مهما كانت تعد علماً، إلا أنه لا يمكن اعتبار هذا العمل تعليماً وتربية بغض النظر عن موقع هذه المهارة من مجال العلم كمفهوم كلي. وعلى ضوء ذلك أيضاً لا يكون تعلم وتعليم

العلوم الإنسانية، والطبيعية، والتطبيقية بمجردهما تربية وتعليماً. وما يجعل ذلك تربية وتعليماً هو ذلك الشيء الموجود في العلم الذي يستقر بواسطة التكرار. وهنا لا أجد مناصاً من طرح السؤال الآتي، وهو: ما هو العلم؟ أو ما هو الشيء الذي يشتمل عليه العلم؟

أشرت في البداية إلى وجود نوعين من التعريف هما: الحد والرسم. والأول يدل على توضيح حقيقة الشيء بشكل كامل بالإشارة إلى ذاتياته جميعاً، والثاني يدل على توصيف حقيقة ما توصيفاً غير كامل. وهذا يكشف عن وجود أشياء يمكن الوصول إلى تعريف كامل لها وأشياء أخرى لا يمكن فيها ذلك ولكن لا يتعذر توصيفها بنحو غير كامل. والعلم يقع ضمن نطاق الدائرة الثانية. ومن هنا كانت أكثر التعريفات للعلم رسمية، وما يرتبط ببحثنا هذا هو الجانب المعرفي لما للجانب المعرفي من أهمية في بيان ما يشتمل عليه النسيج المعرفي الإسلامي. وأهم آثاره تكمن في ما يعكسه على تصورنا عن الحقيقة والواقع. والمسلمون جميعاً يؤمنون بأن العلم يتنزل على الإنسان من الله، ويعلمون في الوقت عينه تفاوت الحواس التي تتلقاه والقابليات والطرق يُتلقى بها. وبناء على كون العلم يتنزل من الله ويتم التعبير عنه بواسطة الاستعدادات المادية والمعنوية للروح، يبدو أن التعريف الأفضل والأليق للعلم هو: حصول المعنى أو حصول شيء في الذهن، مع ملاحظة مصدر هذا العلم الذي هو الله. وإذا لاحظنا المتلقي والمعبِّر عن هذا العلم يمكن القول: إن العلم هو وصول النفس إلى معرفة معنى شيء ما وحقيقته[١٣].

ولقد أشرنا سابقاً إلى أن عالم الطبيعة، كما صوَّره القرآن، هو أشبه ما يكون بكتاب مفتوح وكل جزء فيه بما في ذلك الإنسان نفسه (آيات الآفاق والأنفس) هو كلمات تتحدث مع الإنسان عن الخالق[١٤] والكلمة هي في واقعها رمز وعلامة مشيرة إلى شيء آخر وينبغي أن تدرس هذه العلامة من حيث دلالتها على ذلك العلم الذي تشير إليه، ودراسة الكلمة بحد نفسها نوع من الانحراف عن الحالة الطبيعية، وكذلك عالم الطبيعة ينبغي أن يدرس بالطريقة نفسها؛ أي بما هو متضَمَّن فيه، وإلا سوف يتحول هذا العلم إلى علم فارغ من المحتوى خالٍ من المضمون؛ وذلك للتمايز الحاصل بين الشيء الواقع المدلول عليه وبين الدال والوسيلة التي هي واسطة فحسب، وكما أن البحث حول الكلمات بالشكل السطحي والعادي العرفي الرائج في الاتجاه التجريبي ينتهي إلى القول بوجود جواهر مدعاة خارج الذهن بينما الواقع على خلاف ذلك تماماً؛ حيث إن هذه الجواهر المدعاة لها وجود افتراضي ليس إلا[١٥].

وبالطريقة نفسها، فإن أي «شيء» ما هو إلا رمز وعلامة على شيء آخر لا يقبل الانفصال عنه، والعلاقة بينهما تسمح بمعرفة الثاني من خلال التعرف على الأول. وهذا شرح مختصر للمفهوم القرآني لكلمة «آية» التي يستخدمها القرآن للإشارة إلى الكلمات والأشياء[١٦]. وعلى ضوء هذا التصور عرَّفنا العلم بكونه وصول شيء إلى النفس، أو وصول النفس إلى شيء.

«معنى شيء ما» المراد من المعنى هنا هو المعنى الصحيح، والمقصود من الصحة لا بد من أن يحدد على ضوء النظرة القرآنية إلى الواقع والحقيقة، وبعد الوصول إلى هذه النقطة من البحث يمكن توضيح ما تقدمت الإشارة إليه من العلاقة بين التفسير والتأويل وأثر ذلك في بناء تصورنا عن التربية والتعليم. فكما أن منهج التفسير والتأويل يستخدم لفهم القرآن وفهم المعاني التي يعكسها على الحديث والسنة وأشياء العالم التجريبي، كذلك ينبغي التعاطي مع عالم الطبيعة بالطريقة عينها، والنظر إلى مفردات هذا العالم على أنها أجزاء مترابطة تشير إلى نظام واحد تصفه وتحكي عنه وهي انعكاس للقرآن الكريم. وفي هذا المنهج يتحول القرآن إلى أعلى مرجعية، تؤيد الحقيقة في أبحاثنا العقلية والتجريبية. وحاصل ما ندعيه هو أن العلم هو: «في إشارة إلى المعنى» عبارة عن المعرفة بالأماكن الصحيحة واللائقة للأشياء في نظام الخلقة، كما أنه ينتهي إلى معرفة منزلة الله الحقيقية في نظام عالم الوجود.

قلنا: إن في العلم شيئاً يستقر بالتكرار وإذا لم يستقر، فلا يتحقق مفهوم التربية والتعليم. وقلنا أيضاً: إن المراد من كلمة «شيء» هو العلم والهدف الذي تنتهي إليه أي عملية بحث. وقلنا قبل قليل: «إن العلم هو عبارة عن الأماكن الصحيحة واللائقة للأشياء في نظام الخلقة...». وبالجمع بين هذه العبارات جميعاً يستنتج أن الشرط الأساس في التربية والتعليم هو كون المنتقل علماً بهذا المعنى الأخير المشار إليه. والمعرفة وحدها لا يلزم عنها بالضرورة بناء سلوك خاص في مقابل الأشياء التي تمت معرفتها أو تجاه الله سبحانه؛ ولذلك سوف تكون هذه المعرفة خالية من أي مضمون، وعليه يتضح أن الشيء الذي لا بد من توفره في العلم لكي تكتمل حقيقة التربية والتعليم هو: المعرفة والتصديق بالأماكن الصحيحة للأشياء في نظام الخلقة والتصديق بمنزلة الله سبحانه في هذا النظام.

في هذا التعريف الذي قدمناه للعلم، يبدو لنا بوضوح أن مفهوم «الأماكن الصحيحة للأشياء» له مجالان استخداميان، هما:

أ- مجال معرفة الوجود بما يشمل الإنسان والأشياء التجريبية.

ب- مجال معرفة الله ويدخل في ذلك المظاهر الدينية والأخلاقية للوجود الإنساني.

والأماكن «الصحيحة واللائقة» يراد بها المكان الحقيقي والأصلي أي ما تشير إليه كلمة «حق»؛ وذلك لأن كلمة «حق» تدل على الواقع وعلى الحقيقة في آنٍ معاً وتستخدم في المجالين المشار إليهما أعلاه. كلمة «حق» تدل على «الحكم» المنسجم مع الواقع، وهذا الحكم يستلزم مجموعة من الإظهارات والعبارات التي تجري على اللسان بشكل قضايا أو معتقدات دينية أو فكرية. والضد الدقيق لكلمة «حق» هو كلمة باطل بمعنى الكذب والعبث الذي لا حاصل له. فالحق يتناسب مع مقتضيات الحكمة والعدل. ومرادنا من العدل هو وضع الأشياء في مواضعها. ومن الحكمة هو ذلك العلم الذي يُقدِر من يفاض عليه من الله، على الحكم الصحيح على الأشياء.

وهكذا عندما نتحدث عن حقيقة موضوع ما بعنوان يناسب هذه الحقيقة بالقياس إلى الحكم مرادنا من الحكم هو الحكم الناشئ عن الحكمة. وعليه يكون الحق هو: الانسجام والتناسب مع شرائط المواقع الصحيحة للأشياء. والتصور الصحيح عن مواقع الأشياء يشمل، معرفة ضرورة وجود هذه الأشياء في مواقعها، واستقرارها في نظام ما، وترتبها في درجتها ورتبتها الخاصة بها. ومن وجهة نظر فلسفة الوجود الإسلامية، فإن كل شيء له مكانته ومنزلته الخاصة به ولكن الإنسان نتيجة جهله بالنظام الحاكم على عالم الوجود يُحدِث تغييراً في هذا النظام ويخل به فيكون سبباً لحدوث الظلم. وعلى الإنسان أن يعيد النظر في ترتيب الأشياء من جديد ويعطي لكل شيء موقعه المناسب ومن ذلك ذاته؛ ليعيد ذلك النظام إلى حالته الأولى. ومن هنا فإن المعرفة في مجال معرفة الله ومعرفة الوجود توجب على الإنسان سلوكاً من نوع خاص ينسجم مع مقتضيات هذه المعرفة؛ ولذلك تدل كلمة حق على التكليف والوظيفة بما يولد انسجاماً مع ظروف الحقيقة ومقتضياتها(١٧).

وعندما نصف الإنسان بأنه ذو حق أو محق، فيكون مرادنا ما أشرنا إليه من التكليف والوظيفة بالنحو الذي تقدم بيانه لهذين المفهومين الأخيرين. وعلى أي حال إن «التصديق» بوصفه عنصراً أساسياً في التشخيص الواقعي في مفهوم التربية والتعليم في الإسلام يكون بمعنى «إثبات وتأييد» أو «تحقق» ما أدى إليه التشخيص في النفس الإنسانية. والاصطلاح المشير إلى هذا العمل بشكل دقيق هو «التحقيق» المشتق من جذر «حق» والمشترك معه في بعض دلالاته، ومن دون هذا الأمر لن تكون المعرفة إلا «تعلماً» لا «تربية».

وحتى هذه المرحلة من إيضاحنا لمفهوم التربية والتعليم في الإسلام نكون قد ربطنا معظم المفاهيم المفتاحية والأساسية في نظام التفكير الإسلامي ومما أوضحناه ولو بشكل مختصر: المعنى، العلم، الحكمة، العمل، الحق، النطق، النفس، القلب، المراتب، الدرجات، الآيات، التأويل والتفسير.

وقد تم ربط هذه المفاهيم إلى بعضها بقالب ذي معنى يوحي بتعريف خاص لمفهوم التربية والتعليم في الإسلام، والآن يمكن تعريف هذا المفهوم بالنحو الآتي: هو معرفة وتصديق يستقر في نفس الإنسان شيئاً فشيئاً، ويتعلق بمواقع الأشياء الواقعية في نظام الوجود، وينتهي بالمرء إلى معرفة منزلة الله في هذا النظام.

بقي أن نشير إلى وجود مفهوم أساسي وجوهري في عملية التربية والتعليم وهذا المفهوم هو «الأدب»، الذي هو انضباط البدن، والفكر والروح. وهو الذي يضمن الانسجام بين المعرفة والتصديق. وحيث إن مصطلح الأدب يشير إلى الانسجام بين المعرفة والتصديق وهو الذي يضمن ولادة سلوك منسجم مع هذه المعرفة، سلوك اختياري ناتج عن رغبة وشوق، فإن تحققه في الشخص وفي المجتمع ككل انعكاس للعدل وشعاع منه. والعدل انعكاس للحكمة كما تقدمت الإشارة سالفاً. فالأدب كالعدل، الذي هو وضع الأشياء في مواضعها؛ حيث إن هذه طريقة في المعرفة تتيح لنا أو تساعدنا على حفظ مراتب الأشياء، وكما أن العدل شعاع من الحكمة أيضاً. والأدب يعرف نفسه بعنوان أنه الهدف المنشود من وراء البحث العلمي.

إن الهدف المنشود من وراء البحث العلمي في الإسلام هو إحلال الخير والحُسن في الإنسان؛ أي إيجاد الإنسان الجيد لا المواطن الجيد كما هو في الثقافة الغربية. وما نقصده من كلمة جيد في قولنا: «الإنسان الجيد»، هو الإنسان المتحلي بالأدب بمعناه المشار إليه في ما سبق. وذلك أن الإنسان قبل ظهوره وتشخصه بالبشرية كان له ميثاق مع الله بوصفه رباً عندما شهد على نفسه في مقابل سؤال: ﴿**ألست بربكم**﴾ فقال: ﴿**بلى**﴾ وهذا الحوار وهذه الشهادة تكشفان عن أن الإنسان مجهز بقوة العقل والفكر قبل تلبسه بلباس البدن المادي ما يجعله مؤهلاً لمعرفة موضعه الوجودي في مقابل الله بوصفه مالكاً، وخالقاً، ورازقاً، ورباً. وفي الواقع يمثل هذا العهد مع الله الأساس في ماهية الدين؛ وذلك لأن كل أصول الإسلام تنتهي إلى ذلك الوضع المعنوي[١٨]؛ أي خصوصية المعرفة وقابلية الإقرار. ومن هنا أشار الحكماء إلى هذه الخصوصية في تعريفهم للإنسان بـ «ناطق»، والوجه

الآخر في طبيعة الإنسان هو البعد الحيواني. وهكذا كان الإنسان موجوداً واحداً ذو طبيعتين ونفسين إحداهما أرقى من الأخرى، والأدب هو الذي يجعل النفس الحيوانية في مرتبة أدنى في طبيعة الإنسان. ولا يتم الأدب إلا بالمعرفة والتصديق معاً فالمعرفة المجردة من التصديق تكبر محض، والتصديق المجرَّد من المعرفة حماقة ليس إلا؛ وكل واحد من هذين الأمرين وحده باطل؛ حيث إن الإسلام لا يعطي أي قيمة لعلم لا يرافقه سلوك ولا لسلوك لا يكون مبنياً على علم. والإنسان العادل هو الذي يحقق في نفسه الأدب ليحقق بالتالي الإنسان الصالح ويخرجه إلى عالم الوجود.

هذا المفهوم للأدب يمكن استنباطه من التصور الإسلامي قبل دخول التعديلات عليه، هذه التعديلات الناشئة من العادات والتقاليد الاجتماعية والتي خضعت لتأثير كثير من المحدثات الطارئة. الأدب بمعناه الأولي هو دعوة إلى حفل أو ضيافة. والحفل يدل على وجود شخص (مضيف) محترم يعتقد بوجود مجموعة من الأشخاص يستحقون شرف الدعوة والتكريم، وهؤلاء الأشخاص يُتوقع منهم سلوك من نمط خاص ينسجم مع ما هم عليه من المنزلة والمقام. وأسلمة هذا المفهوم الأولي للأدب تكون بإدخال بعض التعديلات الطفيفة عليه مع حفظ العناصر الأساسية فيه وذلك كما ورد في حديث ابن مسعود: «**إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض فتعلموا من مأدبته**». فالفرق بين هذه المأدبة الربانية وغيرها من المآدب في ما يقدم فيها فالحكماء مدعوون إلى التزود من العلم الذي يقدمه الله في مأدبته ليكون غذاءً لروحهم وحياة لها، وهنا يتجلى الربط بأبهى صوره بين العلم والحياة في تأويل قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾؛ حيث إن الإسلام ينظر إلى العلم بوصفه طعاماً للروح وحياةً للإنسان. غاية الأمر أن العلم الواقعي هو الإحساس بالطعم وتذوقه. والذوق الذي يتحدث عنه أهل البصيرة من العرفان هو الكشف عن واقع الأشياء؛ ولذلك كان الأدب مستلزماً للعمل ليتحقق عن طريق ذلك الانضباط في الفكر والروح. ومن هنا كان اكتساب الصفات الحميدة مشروطاً بالعمل الصالح. وبناء على هذا التصور يمكن تبرير المدعى القائل بأن الأدب بوصفه فعل انضباط والتزام وتصرف لائق، يمثل تحقق هدف العلم. ولا نقصد من قولنا: إن هدف العلم هو إيجاد الفرد الصالح أنه لا يهدف إلى إيجاد المجتمع الصالح، لما بين صلاح الأفراد وصلاح المجتمع من تلازم بيِّن. والتأكيد على أهمية الأدب بوصفه تمثلاً فعلياً لعملية التربية والتعليم هو الموجب للاطمئنان بأن العلم سوف يُستخدم بشكل صحيح لما فيه مصلحة المجتمع. ولأجل هذا الأمر كان يصر

المسلمون ومفكروهم على المزج بين العلم والأدب وكانوا يطلقون على المركب المتوازن من هذين الأمرين تربية. وما ذلك إلا لأن الأدب يشمل وجهي هذه العملية؛ أي العلم والعمل.

وقد ورد في حديث آخر أكثر شهرة من الحديث الذي أشرنا إليه سابقاً وهذا الحديث هو قوله(ص): «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**». وفي التحليل اللغوي لهذه الرواية يقول ابن منظور: أدَّب مرادف علَّم، والتأديب اسم مصدر يحمل نفس الخصوصيات المعنائية وهو ما عبرنا عنه بـ «التربية والتعليم»، ولأجل تبديل «العلم» إلى تربية وتعليم أضفنا عنصراً أساسياً هو «التصديق» وعرفنا التربية والتعليم بأنها: «**هو معرفة وتصديق يستقر في نفس الإنسان شيئاً فشيئاً، ويتعلق بمواقع الأشياء الواقعية في نظام الوجود، وينتهي بالمرء إلى معرفة منزلة الله في هذا النظام**». وبعد ذلك أضفنا عنصراً آخر ليكون التعريف أكثر جامعية وأوضح دلالة، وهذا القيد هو ترسخ هذه المعرفة لا أي معرفة ولو لم تكن راسخة؛ وحيث إن العلم هو من الخصوصيات اللصيقة بالإنسان وحده كفرد وبالتالي بالمجتمع الإنساني بشكل عام، وعندما نشترط في كمال العلم التصديق بمواقع الأشياء، ومراتبها فينبغي بالدرجة الأولى أن يعرف الإنسان موقعه ومنزلته في هذا النظام قبل أن يعرف مرتبة أي شيء آخر، ليحاول بعد معرفة مرتبته الواقعية أن يرتقي بالعمل إلى مرتبة أعلى، وهذا هو الأدب الذي يمنع الإنسان من الانحراف والميل في مقام الحكم. وفي ختام هذا المطلب لا ينبغي الشك والتردد في أن الأدب هو الهدف الأسمى للتربية والتعليم بل هو ما يعطيهما تحققهما في عالم الواقع بحسب الرؤية والتصور الإسلامي.

التربية بمعناها الاصطلاحي الحالي، باعتقادي، مصطلح على درجة من الجدة وأحسب أنها من نحت بعض الحداثويين. وفي اللاتينية توجد هاتان الكلمتان educare و education وفي الإنكليزية educe بمعنى إيجاد الشيء أو إيجاد من موجود غير ظاهر ويُستخدم في مجال الموجودات الطبيعية والمادية. ومفهوم التربية والتعليم فيه من المصاديق ما يشمل الحيوان بشكل عام ولا ينحصر بالحيوان الناطق. وعلى أي حال، فإن من اختار كلمة «التربية» للدلالة على معنى التربية والتعليم، يفكر في الفضاء الغربي لهذا المفهوم؛ وذلك لأن كلمة التربية تشير إلى التربية العقلانية والأخلاقية بالمواربة لا بالصراحة، والمعاني التي تتداعى منها هي تلك المعاني التي أشرنا كمعانٍ للكلمات الإنكليزية واللاتينية. ورغم أن مخترعي هذه الكلمات يصرون على أنهم أخذوا هذه الكلمة من القرآن الكريم، إلا أن في اشتقاق هذه الكلمة للدلالة على هذا المعنى تحديداً، ما يكشف

عن عدم معرفتهم ببنية معرفة معاني نظام التفكير القرآني؛ وذلك لأن كلمة التربية وحدها ليست مناسبة ولا مقبولة. وسوف يأتي مزيد إيضاح لهذه الفكرة.

إن كلمة «تربية» بمعنى «التربية والتعليم» لا توجد في أي من المعاجم اللغوية التي أشرنا إلى بعضها، نعم يشير ابن منظور إلى كلمات تشترك مع التربية في مادتها ككلمة ربا ورب. وينقل الأصمعي أن جميع هذه الكلمات التي تشترك في هذا الجذر تدل على معنى واحد وحول هذا المعنى يقول الجوهري: «**ربيته تربية وتربيته أي غذوته، قال: هذا لكل ينمي كالولد والزرع ونحوه**»(١٩). وكلمة تربية في اللغة العربية تدل على معانٍ متعددة منها التنمية والتغذية والتوليد وتأهيل الحيوان البري وغير ذلك ولا تضيق حدود استخدامات هذه الكلمة على الإنسان وحده بل تستعمل في مجالات عدة تشمل الجمادات فيقال: تربية الدواجن والأسماك والنباتات. وأما التربية والتعليم بحسب التصور الإسلامي، فهي مفهوم خاص بالإنسان. وبالرجوع إلى القاعدة التي أقرها الجاحظ لاستخدام المفاهيم والكلمات يتضح عدم صحة استخدام «التربية» بمالها من المعنى العام في أمر خاص بالإنسان مثل: التربية والتعليم. أضف إلى ذلك أن التربية تدل على عنصر آخر هو المالكية كمالكية الآباء لأبنائهم، وهذه المالكية هي نسبية؛ وذلك لأن المالكية الحقيقية هي لله تعالى وحده، فهو الرب المدبر الرزاق والواهب للحياة؛ وهذه الصفات وغيرها تشتمل عليها كلمة رب. وعليه، فإن كلمة تربية عندما تضاف إلى الإنسان أو الحيوان فإنها تدل على تصرف في غير ملك حقيقي، وهذا التصرف يكون تربية عندما تكون التغذية والترويض وغيرها من المعاني بدافع التنمية والزيادة. فإذا أردنا من التربية والتعليم إيداع العلم في عقل إنسان آخر فمن الطبيعي أن لا يكون هذا العمل تربية. وبناء على هذا فإن محاولة إعطاء كلمة التربية التي لا تدل بطبيعتها على العلم، معنى العلم نكون بصدد ترسيخ معنى مصطنع لا تدل عليه الكلمة بحد ذاتها. وأخطر ما في هذا الأمر هو تحويله التربية والتعليم إلى عمل غير ديني كما يحصل في هذا العصر؛ حيث إن هدف التربية كما مر في ذكر معانيها التي ذكرها أهل اللغة لها ينصب في الغالب على الجوانب المادية. ونحن نعلم أن ماهية التعليم تتحقق على ضوء هدف يتعلق بالبعد العقلاني في الإنسان؛ وحيث إن عنصر التفكر العقلاني ليس وجهاً ذاتياً من وجوه التربية، فلا يمكن القول: إن التعليم الذي يهدف إلى تعريف الإنسان بربه(المالك الحقيقي له) والذي ينتج عنه سلوك ينسجم مع هذه المعرفة، هو تربية. لا، ليس هذا العمل تربية بل هو «تأديب».

وبالعودة إلى الدفاع الذي يستند إليه المروجون لكلمة «تربية» والذي يستند إلى اشتقاق هذه الكلمة من أصول قرآنية ويرجعونها إلى مفردات من قبيل: ربا ورب، لا تساعد على إيصال بعض العناصر الأساسية في التربية والتعليم وهي: العلم والوعي والفضيلة. يحثنا الله سبحانه على الدعاء للوالدين، فيقول: ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً**﴾[٢٠]. ولا شك في أن كلمة ربياني تحمل معانٍ أسمى بكثير من الإطعام والتغذية والمحافظة على سلامة الجسد، وتشير إلى كل العطف الذي يقدمه الوالدان للابن. وفي كاف التشبيه في قوله ﴿**كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً**﴾ والتي تسمى كاف الموازنة إشارة إلى المقايسة بين تربية الوالدين المقرونة بالرحمة والرحمة المطلوبة لهما من الله. وكذلك في التربية، فيقال عن الله رب؛ لأنه يخلق ويربي ويرزق ويحفظ وهو المالك الحقيقي، كل هذه الأفعال تسمى رحمة، وعندما يقوم الإنسان بهذه الأعمال عدا بعضها مما هو مختص بالله كالخلق يقال عن هذه الأفعال تربية.

إن أول دلالات كلمة «رب» هي التربية بمعنى «إيصال الشيء إلى حالة كماله». ولكن إيصال الشيء إلى كماله كالرحمة ليس مستلزماً للعلم، بل يشير إلى حالة وجودية منفصلة عن العلم. ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى حالة الانفصال بين العلم والرحمة وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا**﴾[٢١].

والرحمة في علم الكلام والإلهيات الإسلامي تدل على هبة الوجود للمخلوقات. وعليه، فعندما نقول: إن التربية هي إيصال الشيء إلى كماله يكون المراد الأولي هو الجانب الجسدي والمادي. وأما تكميل الجانب العقلاني والمعنوي، فهو مستلزم لوضع العلم في موضعه عبر التكرار، وقد مرت الإشارة سابقاً إلى أن العلم ليس عنصراً ذاتياً في التربية. ومن هنا، استخدمت كلمة تربية في قصة موسى(ع) مع فرعون في قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿**أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً**﴾[٢٢]. فلا يفهم من هذه الآية أن فرعون كان يقوم بتعليم موسى(ع).

والأمر الثالث، هو: رغم أن معنى العلم ربما يساعد على رسوخ مفهوم «رب»، فإن هذا المعنى يشير إلى مالكية العلم لا إلى وضعه، وعليه فلا تساعد على ما نهدف إليه من مفهوم التربية والتعليم. وأشير إلى كلمة «ربّاني» التي أطلقت في التراث الإسلامي بوصفها لقباً لبعض الأشخاص، حيث ينقل عن **محمد بن الحنفية** قوله في حق **ابن عباس**: «**إنه ربّاني الأمة**»[٢٣]. وكذلك تقسيم **علي بن أبي طالب**(ع) الناس إلى ثلاث درجات أوَّلهم العالم

الربّاني[٢٤]. وقال **سيبيويه**: «**زادوا ألفاً ونوناً في الرباني إذا أرادوا تخصيصاً بعلم الرب دون غيره كأن معناه: صاحب علم بالرب دون غيره من العلوم**»[٢٥]. وعن **ابن الأثير**: «**هو منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون للمبالغة؛ قال وقيل: هو من الرب بمعنى التربية**»[٢٦]. ومع هذا كله يقول **أبو عبيد**: «**وأحسب أن الكلمة عبرانية أو سريانية؛ وذلك أن أبا عبيدة زعم أن العرب لا تعرف الربانيين... وإنما عرفها الفقهاء وأهل العلم**»[٢٧]. وقد وردت هذه الكلمة في ثلاثة موارد و كلها تشير إلى أحبار اليهود[٢٨].

توضيح المشكلة وطريقة الحل

في ما تقدم من هذه المقالة بيَّنا المعاني والدلالات الأساسية المتعلقة بكلمتي التربية والتأديب، وأوضحنا الفرق بينهما لبيان ما يليق منهما وينسجم مع مقتضيات العدل والحكمة، وحددنا الأنسب منهما والأكثر انسجاماً مع تعريفنا لمفهوم التربية والتعليم في الإسلام. وهنا نود أن نؤكد أن كلمة تربية في لسان المسلمين الأوائل لم تكن تدل على شيء له علاقة بالتعليم ولم تكن تستخدم في هذا المعنى. بل كانوا يربطون بين الرحمة والتربية، كما يربطون بين التأديب والعلم. فكلمة تأديب تستبطن في داخلها العلم والتعليم والتربية في آنٍ معاً. ومن هنا، كانت هذه الكلمة أكثر دقة في الإشارة إلى مفهوم التربية والتعليم في الإسلام. وقد أدى استخدام كلمة تربية للدلالة على ذلك المفهوم إلى فقد كلمة «أدب»، الأمر الذي أدى بدوره إلى فقدان العدل وهذا الأمر الأخير كاشف عن الاشتباه واختلاط الأمور في العلم وكل هذه الأعراض موجودة بين المسلمين في عصرنا الحاضر. وبالنظر إلى المجتمع نجد أن الاشتباه في مقام العلم يؤدي إلى سيادة قادة غير مؤهلين يهيئون أرضية تساعد على بروز الظلم وظهوره، ويعملون على دوام هذا الوضع الذي يضمن وجودهم واستمرار تسلطهم. وبعبارة مختصرة ترسم حقيقة واقع المسلمين اليوم وأسبابه نقول:

١- إن الاشتباه في مقام العلم يولد الأمر اللاحق.

٢- فقدان الأدب في المجتمع، وينتج عن هذا وسابقه الأمر الثالث الآتي.

٣- ظهور قادة لا يملكون لياقة القيادة والزعامة، فاقدين للمعايير والملكات المفترض وجودها في القيادة الإسلامية، ويعملون على إبقاء ما أشير إليه أعلاه تحت الرقم (١)؛ وذلك لأنه كان سبب وجودهم وهو علة بقائهم.

وهذه الأمور الثلاثة كل منها لازم أو ملزوم للآخر وقد يبدو أن بينها دوراً باطلاً

(باصطلاح المناطقة) ولأجل حل هذه المعضلة لا بد من البحث عن علة فقد الأدب؛ وذلك أن العلم لا يعرف طريقاً إلى باحث عن علم فاقد لشرط الأدب، فانعدام الأدب يؤدي إلى عدم معرفة منازل الأشياء في نظام الخلقة، وبالتالي الإخلال بهذا النظام ومن ذلك عدم معرفة منزلة القائد الحقيقي وفقدان الإحساس بقيمة القانون، والحل هو بالتعاطي مع التربية والتعليم بوصفه تأديباً.

إن مسألة مفهوم الأدب نفسه من الصعوبات التي تتجلى في المرحلة الأولى. ولعله يُطرح السؤال الآتي، وهو: إذا كان الأدب على هذه الدرجة من الأهمية في التربية والتعليم. في التصور الإسلامي فلماذا تأخر اكتشاف مفهوم التأديب حتى الآن؟ ونقول في الجواب: لابد من الالتفات إلى عدم صحة القول بتأخر اكتشاف أهمية التأديب، وبالتالي التأخر في استخدام هذه الكلمة للدلالة على المعنى الذي أشرنا إليه. بل على العكس تماماً توجد أدلة وقرائن عدة تشير إلى محورية مفهوم التأديب في التربية والتعليم الإسلامي وعلى الربط بين العلم والعمل في التراث الإسلامي. فقد كان يقال للمسلمين منذ فجر التاريخ الإسلامي بأن النبي(ص) يمثل مظهراً لأعلى درجات الأخلاق الفاضلة وهو المثال الأسمى للسلوك الإنساني: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٢٩]. وقد مرت الإشارة إلى حديث النبي(ص) الذي يتحدث فيه عن تأديب الله له.

وقد بدأ هذا الحراك التاريخي لهذا المفهوم منذ العصر الأموي؛ حيث كانت كلمة التأديب تشمل الأدب والثقافة العربية، وفي العصر العباسي صارت تشمل مضافاً إلى ذلك سائر العلوم وفلسفات الحضارات الأخرى. ولكن في العصور العباسية المتأخرة بدأ تضييق هذا المعنى الذي كان ما يزال في طور النشوء؛ بحيث صار الأدب مفهوماً يقتصر في دلالته على الأدبيات. والتقاليد الاجتماعية والمهنية، وهذا ما يبرر إصرار بعض الناس على ترويج مفهوم التربية بدل التأديب جهلاً منهم بمعنى الأدب في الرؤية الإسلامية ووقوفاً على الانحراف الدلالي الذي طرأ على هذه الكلمة.

قبل ما يقرب من ألف سنة أشار **الغزالي** إلى الخلل الذي أصاب العلوم الإسلامية نتيجة تحويل بعض الكلمات والمفاهيم عن دلالاتها الأصلية التي كانت لها في عصور الإسلام الأولى وبين المسلمين الأوائل.

ويذكر **الغزالي** خمس كلمات تعرضت لهذا النوع من الاختلاط وهي: الفقه والعلم، والتوحيد، والتذكير، والحكمة. وهذه المفاهيم، أو فقل العلوم كانت في ما مضى، بحسب

الغزالي، تستحق التعظيم ولكنها تبدلت مفاهيمها وطرأ عليها تحوير، بحيث صارت تستحق الذم بدل المدح. فالفقه كان بالأصل بمعنى معرفة الدين وباعثاً على التقوى ثم صار علماً تدور أبحاثه حول القانون فحسب. والعلم الذي كان علماً بالله صار في دلالته مرادفاً للفقه إلى حد ما[٣٠].

وإذا قبلنا ما طرحه **الغزالي** حول هذه المفاهيم يصبح بالإمكان قبول تغير مفهوم الأدب واختلافه عبر العصور صار لا يدرك على حقيقته التي كانت له في الرؤية الإسلامية ولا تقبل اليوم دلالته على المراد من مفهوم التربية والتعليم.

وبالإشارة إلى ما قلناه من قبل حول أسلمة اللغة ينبغي التأكيد على أن تغير دلالة المفاهيم الإسلامية ليس ناتجاً عن التحول الاجتماعي كما ربما يعتقد البعض، بل هو ناتج عن الجهل بحقيقة التصور الإسلامي حول هذه المفاهيم الأمر الذي يجعلنا ننسب هذا التغير إلى التطور الاجتماعي؛ وذلك لأن المجتمع ليس مرجعية يمكن إسناد التحولات المضللة إليها. فالمجتمع على العكس تماماً لا يمثل مرجعية بل هو يحتاج إلى تربية وتعليم من قبل العلماء والحكماء لضمان صلاحه واستقامته. ويكفي لإثبات هذا المدعى الإشارة إلى مصطلح «أكثر الناس» الذي يستخدمه القرآن الكريم في كثير من الموارد من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ**﴾[٣١]. وما أود قوله هو أن على علماء المسلمين أن يكونوا يقظين تجاه أي خلل أو استخدام غير صحيح للمفاهيم الإسلامية؛ كي لا يؤدي هذا الخلل إلى اشتباه في إدراك حقيقة الإسلام ورؤيته الكونية. ولا ننسى الإشارة إلى أن تدوين المعاجم الحديثة للغة العربية تم في الغالب بواسطة العرب غير المسلمين والمستشرقين، وبالالتفات إلى هذه المسألة ينبغي الحذر من تسرب الأفكار الدخيلة إلى الفكر الإسلامي كما تسربت المفردات والمصطلحات الغربية التي لا تنسجم دائماً مع التصور الإسلامي، وأبرز دليل على هذا التسرب هو دخول كلمات على خط الدلالة على مفهوم التربية والتعليم كالتعليم والتربية والمعارف لا تؤدي أي منها دلالته الحقيقية؛ ولذلك نحن نصر على استبدال هذه الكلمات بمصطلح التأديب.

قالب نظام التربية والتعليم في الإسلام:

كل إنسان هو عالم صغير ومثال للعالم الكبير[٣٢]؛ وحيث إن هدف العلم في الإسلام هو إيجاد الفرد الصالح، وليس المواطن الصالح لحكومة دنيوية؛ لذلك كان هم النظام

التعليمي في الإسلام منصباً على الفرد لا على الدولة. وإن أعلى وأكمل تجسيد للنظام التعليمي هو الجامعة. وجامعات اليوم لا تعكس صورة الإنسان الصالح كما يريده الإسلام بل تعكس الصورة التي تريدها الحكومة الدنيوية، وهذا ناتج عن تأثر نظامها التعليمي بالرؤية الغربية. وذلك لأن الحضارة الغربية وغيرها من الحضارات ما عدا الإسلامية –ليس عندها فكرة الإنسان الكامل ليكون النموذج والقدوة في الحياة على صعيدي العلم والعمل. الإسلام وحده هو الذي يرى أن رسول الله(ص) هو الإنسان الكامل والأسوة الحسنة؛ ولذلك كان النظام التعليمي الإسلامي مرتكزاً إلى هذا الإنسان الكامل، ولذلك أيضاً يجب أن تكون الجامعة في الإسلام انعكاساً وتجسيداً للنبي(ص) وهدفها تربية أفراد (نساء ورجال) يحاول كل منهم بحسب قدرته واستعداده أن يجسد شخصية النبي(ص) في علمه وعمله وأدبه كما يقول(ص): «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**».

الإنسان روح وجسد في وقت واحد وينبغي أن تكون الروح هي الحاكمة على الجسد كما يحكم الله عالم الكائنات. والإنسان يدير حياته ويدبرها بوصفه واحداً، يديرها بواسطة حواسه واستعداداته الروحية والجسدية على حدٍ سواء.

وكما أن الإنسان ثنائي الطبيعة كذلك العلم أيضاً فمنه إلهي المصدر ومنه اكتسابي، وفي الواقع إن الله هو مصدر العلم بأجمعه ولكن هذا التقسيم باعتبار طريقة التحصيل ليس إلا. وبما أن النوع الأول من العلم ضروري لعالم الإنسان، فهو واجب التحصيل على جميع المسلمين أي فرض عين، والآخر هو فرض كفاية يجب على بعض المسلمين تحصيله ولا يجب على الجميع. وهذا النوع الأخير من العلم يشمل: (العلوم المنطقية، والعقلانية، والفلسفية).

وهذا التصميم الآتي يكشف طبيعة العلاقة بين الإنسان والعلم والجامعة.

الإنسان

١– روحه وجوده الداخلي (الروح، النفس، القلب، العقل).

٢– الجسد والحواس والاستعداد الجسدي.

العلم

١– علم إلهي.

٢– علم اكتسابي.

الجامعة

١- العلوم الدينية(واجب عيني).

٢- علوم المنطق والفلسفة والعقليات (واجب كفائي).

فعندما نبني العلم على أساس الإنسان يتضح أن العلوم الإلهية تشير إلى البعد الروحي في الإنسان، والعلوم الاكتسابية تؤشر إلى الحواس الجسمانية. والعقل هو الذي يربط بين الروح والجسد؛ وذلك لأن العقل ذاتي معنوي يمكّن الإنسان من إدراك الحقيقة والوقائع المعنوية. وكذلك عندما تبنى الجامعة على أساس كونها انعكاساً للإنسان والعلم ينبغي أن تكون العلوم الدينية مركزاً للجامعة وروحاً لها كما أن الروح هي أساس قيمة الإنسان ومركز الثقل فيه. وما يفهم عادة من الواجب العيني هو معنى منسوج من قاعدة ثابتة تم تعلمها في فترة الطفولة وهي محدودة بحدود الضروريات. وما ينبغي استنباطه من هذه القاعدة هو الهدف المتضمن فيها، وهذا العلم هو علم تكاملي يتسع مداه بتوسع قدرات الإنسان واستعداده. وعليه سوف يبقى هذا العلم واجباً عينياً بشكل دائم ومستمر. ولن يقتصر وجوب تحصيله على المراحل الابتدائية بل سوف يلاحق هذا الوجوبُ الطالبَ إلى مرحلة الدراسة الجامعية بشكل يتناسب مع كل مرحلة من مراحل التعليم. ولكن ينبغي أن نحدد مستوى هذا العلم في المرحلة الجامعية أولاً؛ وذلك لأن المستوى الجامعي هو الأكمل والهدف النهائي وعندما يتحدد الهدف تتضح معالم المراحل الأدنى وأهدافها. وإلا إذا بدأنا من المراحل الدنيا فلن نحظى بالتوفيق؛ لأنه عندها لا يكون لنا نموذج نقيس على أساسه، ولذلك ينبغي أن يكون التعليم الديني في المرحلة الجامعية هو النموذج، وهذا العلم ينبغي أن ينسجم مع التصورين الشيعي والسني في العالم الإسلامي.

ويمكن تصنيف العلوم بنوعيها(الإلهي والاكتسابي) على النحو الآتي:

‡ العلوم الدينية

١- **القرآن الكريم:** حفظه وتفسيره وتأويله.

٢- **السنة:** بما يشمل حياة النبي(ص) وأحاديثه، وحياة الأنبياء السابقين.

٣- **الشريعة:** الفقه والقانون وأصول العمل في الإسلام (الإسلام، والإيمان، والإحسان).

٤- **الكلام**: الله ذاته وصفاته وأفعاله وأسماؤه(التوحيد).

٥- **ما بعد الطبيعة الإسلامية**، التصوف، وعلم النفس، والنظرة الإسلامية إلى العالم، والعناصر الموجهة للفلسفة الإسلامية لمراتب الوجود.

٦- علوم اللغة: اللغة العربية، قواعدها، مفرداتها، وآدابها.

I- العلوم المنطقية والعقلية والفلسفية

١- العلوم الإنسانية

٢- العلوم الطبيعية

٣- العلوم التطبيقية

٤- العلوم المهنية

وهذه الأنواع الأربعة للعلوم ينبغي أن تهذب من المفاهيم الأجنبية الغربية، وتضخ فيها المفاهيم الإسلامية الأساسية، وهذا هو ما يسمى بـ «أسلمة العلوم» Islamization، وأهم ما يعنيه فعل الأسلمة حفظ العلم وصيانته من المفاهيم المؤسسة على الدنيوة[٣٣]. ورغم أن الأمر يتوجه بالأساس صوب العلوم الإنسانية إلا أن العلوم التطبيقية والطبيعية لا تأباه، وبخاصة عندما تعمل على تفسير الحقائق وتدوين الرؤى والنظريات. ويمكن أن يضاف إلى هذا العلم حقول جديدة، على النحو التالي:

١- الدين المقارن من وجهة نظر إسلامية

٣- الحضارة والثقافة الغربية وهذان العنوانان يجب أن يكونا كأدوات لفهم الإسلام في ضوء علاقته بالأديان والثقافات الأخرى.

٤- العلوم اللغوية: اللغات الإسلامية وقواعد اللغة، والآداب.

٥- التاريخ الإسلامي: الفكر والحضارة، والثقافة، وانتشار العلوم في الإسلام، الفلسفة الإسلامية للعلوم، الإسلام بوصفه تاريخاً للعالم.

هذه الحقول الجديدة وبخاصة ما ورد تحت الرقم ٤ سوف يضمن تقدم واستمرار العلوم وازدهارها. وليس هذا التصور لتصنيف العلوم سوى استمرار لأمر له جذوره في التراث الفكري الإسلامي، ونحن نعلم أن محاولات عدّة جرت من قبل العلماء المسلمين لتصنيف العلوم، وقد كانت هذه التصنيفات تتغير باستمرار تبعاً لزيادة العلوم».[٣٤]

ويبدو أن التصنيف الثنائي للعلوم له تاريخ قديم، كما أن الدعوة إلى التوازن والانسجام بين الصنفين كانت موجودة أيضاً. ولا ينبغي فصل أحد الصنفين عن الصنف الآخر؛ وذلك لما لهذا الأمر من أثر سيء على وحدة العلوم وانسجامها. وهذا الانسجام يتحقق بأبهى صوره في التراث الإسلامي. ولا يعني هذا أن الجامعة الإسلامية ترفض التخصص، ولكن هذا المفهوم في النظام الإسلامي للتربية والتعليم له معنى آخر غير ما يحمله في عرف المعاصرين.

التخصص يشير في الواقع إلى حاجات المجتمع والبلاد. ومن الضروري التمييز بين ما يعمل به حالياً في الجامعات، وبين ما يصبو إليه التعليم والتربية في الإسلام، فهيكلية الجامعة الإسلامية وأقسامها ورئاستها ينبغي أن تكون بشكل مختلف عما هي عليه في الوقت الراهن؛ وذلك لأنه إذا كانت الجامعة تهدف إلى بناء الإنسان الكامل، فمن الضروري أن تكون كل تفاصيلها مبنية على ضوء هذا الهدف المنشود.

وفي الختام أجد من المناسب الإشارة إلى بعض العناصر التي تسربت من الفكر الغربي إلى حضارتنا وثقافتنا التعليمية لفرزها ومحاولة تجنبها وهذه العناصر، هي:

١- مفهوم الثنائية التي تشمل تصورهم للحقيقة والواقع.

٢- ثنائية الفكر والجسم في نظرتهم، وتأكيدهم قيمة العقل، والفاصل الذي أقاموه بين العقلانية والتجربة.

٣- مذهبهم الإنسانوي.

٤- مفهوم المأساة (التراجيديا) وخاصة في الأدب.

إن فصل هذه المفاهيم الأساسية عن حقول العلوم المنطقية والفلسفية هو أسلمتها. الأسلمة تعني تحرير الإنسان أولاً من السحر والأساطير، والروحانية أي الاعتقاد بالأرواح في كل شيء، والثقافة القومية، وأخيراً من سيطرة كل ما هو غير ديني على كلامه ولغته. فإن أسلمة اللغة تعني أسلمة الفكر والمنطق، واللاأسلمة عبارة عن ترسيخ المفاهيم الأجنبية والدخيلة في الفكر الإسلامي. وهذا الفعل سوف ينتهي إلى إيداع الإسلام والوظيفة تجاه الله والنبي(ص) في دائرة النسيان، هذه الوظيفة التي هي متعينة لذات الإنسان الحقيقية وأناه الواقعية. وليس نسيان هذه الوظيفة إلا ظلماً من الإنسان يلحقه بنفسه، وهو الارتداد، والتراجع نحو خرافات عصر الجاهلية وطبعها بطابع ديني.

الهوامش:

(١) سورة الزمر: الآية ٢٨.
(٢) سورة يونس: الآية ٣١.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٦٤.
(٤) سورة البروج: الآية ١١.
(٥) لمزيد من الإطلاع: أنظر للكاتب، سلام، مفهوم دين وشالوده ى دين وأخلاقى، كوالامبور، (١٩٧٦).
(٦) سورة الحجرات: الآية ١٣.
(٧) في هذه الفقرة تصرف مراعاةً للاختصار بما يتناسب مع النشر في المجلة بعنوان مقالة. (المترجم).
(٨) أنظر: الجرجاني، التعريفات، ص ٣٩.
(٩) أنظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص ٤٥٧.
(١٠) الجرجاني، مصدر سابق، ص ١٥٧.
(١١) لمزيد من الاطلاع حول العلاقة بين جوهر الإنسان وحقيقته وبين مظهره وجسده الحيواني، أنظر: التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، بيروت، ١٩٦٦، ج٦، ص ١٤١٨.
(١٢) أنظر: الجرجاني، م.س.، ص ٣٥، ٢٣٦، والتهانوي، م.س.، ص ١٠٨٤.
(١٣) أنظر: الجرجاني، ص١٦٠– ١٦١.
(١٤) ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق في أنفسهم**﴾.
(١٥) أشير في هذا المقام إلى مذهب «أصالة الماهية» في مقابل «أصالة الوجود» ولا أقصد من «أصالة الوجود» المذهب الوجودي في الفلسفة الغربية، بل أقصد الاتجاه الذي يتبنى نظرية أن الوجود هو الذي يعطي للأشياء حقيقتها وواقعيتها. وهو المذهب المطروح في الفلسفة الإسلامية.
(١٦) لمعرفة معنى الآية، أنظر كنموذج: لسان العرب، ج١٤، ص ٦٢.
(١٧) يمكن العثور على تحليل أشمل لمفاهيم العدل، والحكمة، والظلم، والصدق، والكذب، في دراسةٍ للكاتب بعنوان:
Islam: The concept of religion and the foundation of ethics and morality, Kula Lumpur, 1976 pp 23 - 27.
(١٨) Islam: The concept of religion and the foundation of ethics and morality, Kula Lumpur, 1976.
(١٩) ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص ٣٠٧.
(٢٠) سورة الإسراء: الآية٢٤.
(٢١) سورة غافر: الآية ٧.
(٢٢) سورة الفرقان: الآية ١٨.
(٢٣) ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص ٤٠٤.
(٢٤) المصدر نفسه.
(٢٥) المصدر نفسه، ص ٤٠٣.
(٢٦) المصدر نفسه، ص ٤٠٤.
(٢٧) المصدر نفسه، ص ٤٠٤.
(٢٨) سورة: الآية ٣٥. وسورة: الآية٧٩. وسورة: الآيتان ٤٧ و ٦٦.

(٢٩) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

(٣٠) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، القاهرة، ١٣٥٨هـ، ج ١، ص٣٨.

(٣١) سورة الأنعام: الآية ١١٦. يشير الكاتب إلى معنى الآية ولا يذكر نصها ويرجع إلى الآية ١١٥ من سورة الأنعام، ولكن لا علاقة لها بالمطلب، ولذلك أحلت إلى الآية اللاحقة. (المترجم)

(٣٢) إن أول من أشار إلى هذه الفكرة هو الإمام جعفر الصادق(ع). ومن بعده أخذها إخوان الصفا وصارت مفردة أساسية من مفردات الصوفية. لمزيد من الإطلاع: أنظر: التهانوي، ج، ص ٧٥، ج٤، ١٠٥٥.

(٣٣) أنظر: كتابنا: «الإسلام والعلمانية، Islam and Secularism، كوالا لامبور، ١٩٧٨، الفصول: ١-٢-٥).

(٣٤) هناك تصنيف قام به الكندي (ت ٢٥٧) مبني على الموروث الأسطوري، وقد قام الفارابي(ت ٣٣٩هـ) بمحاولة أخرى أضاف فيها العلوم الإسلامية، وقد أثرت هذه المحاولة في تصنيف كل من ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) والغزالي (ت ٥٠٥هـ)، وابن رشد(ت ٥٩٦هـ) مع شيء من الإضافة والتعديل. وعلى الطريقة عينها سار إخوان الصفا (القرن الرابع)، ويمكن الإشارة في هذا المجال إلى محاولة التهانوي في القرن الثاني عشر الهجري، أنظر: التهانوي، م.س.، ج ١، ص٥٣-٥٤، وأنظر كذلك: ابن سينا، ما بعد الطبيعة، الترجمة الإنكليزية عن الفارسية، نيويورك، ١٩٧٣، الفصل الأول. ورسائل إخوان الصفا، لا ت، بيروت، دار صادر، جـ١، ص ٢٦٦. ومقدمة ابن خلدون، الترجمة الإنكليزية، ج٢، ص ٤٣٦. وحول الفارابي وإخوان الصفا، أنظر: سيد حسين نصر،

An introduction to Islamic cosmology doctrines and civilization in Islam, New York, 1970, PP 60-65.